الطقوس الجنائزية، وأعمدة النصر في ثقافة الغرب والإسلام، وإنشاء الهيمنة على الشعوب

أ/د حاجي دوران
جامعة اديامان بدولة تركيا

يعتبر الافتخار بالقتل، والتنكيل بالميت أثناء الحروب من أهم التقاليد التي يمارسها المنتصر في المعركة. وقد مورست عملية التنكيل بالميت المقتول في الحرب من قبل كثير من المجتمعات التقليدية القديمة؛ فمثلا كان المنتصر يعمد الى حفظ رؤوس المهزومين، وأحيانا جثثهم المنكّل بها بالكامل الى غاية عودتهم الى مقرهم. وحينها يقومون بتعليق تلك الرؤوس والأجساد في الشوارع والميادين المعروفة. لقد اعتبرت تلك الطقوس الممارسة بعد الحرب مفخرة تلك المجتمعات التقليدية المنتصرة في الحروب، وكانت ترمز إلى قوتهم وعظمتهم وهيمنتهم على عدوهم. لكن أسئلة كثيرة تتبادر إلى أذهاننا؛ لماذا لم تكتف تلك المجتمعات بالقتل فقط؟ لماذا كانوا ينكلون بجثث المقتولين في الحروب؟ وماذا كان يمثل لهم ذلك الفعل؟ وما هي المجتمعات التي مارست هذا النوع من الطقوس؟ وهل اقتصرت تلك الممارسات الطقوسية فقط على المجتمعات التقليدية أم هناك مجتمعات كانت متطورة حضاريا وتمارس نفس الطقوس؟

1) الحرب والتمثيل بالقتلى في الحضارات الغربية القديمة

لقد عرفت الحضارة الفرعونية طقوس التنكيل والتمثيل بكل من يحاول مخالفتها او يهدد سلطتها. حيث كان ملوكها يقطعون الأيدي والأرجل خلافا ثم يقومون بصلب من تسول له نفسه معارضة الفرعون. وهذا ما جاء في قول الله تعالى:{ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِين[1]}

ونجد أيضا ممارسة التنكيل والاعتداء في الحضارة البابلية بالعراق، حيث كان يحرق كل من يخالف السلطة والآلهة، وقد ذكر ذلك في قول الله تعالى:{قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ[2](69) }

أما قبائل اليهود مع تيران الرومانيين فقد صلبوا سيدنا عيسى عليه السلام ليرعبوا كل من آمن به، مصداقا لقوله تعالى:{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَاالْمَسِيحَعِيسَىابْنَمَرْيَمَرَسُولَاللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَالظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا[3]}

ان حادثة قتل سيدنا عيسى عليه السلام لا تعتبر واقعة تاريخية في الفكر الغربي فحسب، بل هي تجسد أيضا العقيدة المسيحية. وقد ذكرت حادثة صلب سيدنا عيسى عليه السلام في الانجيل عدة مرات، [4] حيث جاء في القصص "وجعلوا فوق رأسه علته مكتوبة: هذا هو يسوع ملك اليهود" "[5]وكان المجتازون يجدفون عليه وهم يهزون رؤوسهم وقائلين: يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام، خلص نفسك إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب". وكان أيضا رؤساء الكهنة يستهزئون مع الكتبة والشيوخ فيقولون: " خلص آخرين، وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها، إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب، فنؤمن به، قد اتكل على الله، فلينقذه الآن إن أراده لأنه قال: أنا ابن الله[6]".

تدل هذه العبارات على ان عقيدة المسيحين قد بنيت أساسا على تعذيب الجسد. وبناء على ذلك نشاهد وجود تماثيل ورسوما تمثل حادثة تعذيب عيسى عليه السلام في كل الكنائس والمعابد.

وفيما يخص الحضارة الرومانية فقد عرفت هي الأخرى طقوسا مختلفة من التمثيل بالعدو في القرون الوسطى. حيث كانوا يعذبون أسرى الحروب ويستغلونهم في مبارزات مع الحيوانات المتوحشة كالفهود والأسود كنوع من الترفيه المسرحي وأمام الملأ.

ومن الطقوس التي كانوا يمارسونها اثناء غزوهم للعدو بناء أعمدة النصر كذكرى لغزوهم تلك البلاد، فكانت كل ساحات المدينة تحصر بتلك الأقواس المنقوشة بمختلف أساليب قتل وتعذيب العدو.

وقد لعبت اقواس النصر الرومانية دورا هاما في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية. فهي تمثل سرد حادثة غزو ما بالتفصيل، ورسم الملوك والقادة والأبطال على انهم الآلهة المقدسة.

أن تقنيات القتل والتعذيب والتنكيل بالميت، وعرضها بالفنون والرسوم والتماثيل هي فخر اجتماعي، وهيمنة بقساوة شديدة تصحبها شرعية لممارسة التعذيب والتنكيل بجسم المقتول في الحرب.

ترمز اقواس النصر الرومانية الى درجة العنف الشديد، وانعدام الرحمة الإنسانية، تلك الصفات كانت شائعة جدا في روما وحتى في البلدان التي كانت تستعمرها، إذ توجد بها اقواس النصر الى يومنا هذا.

وفي العصر الحديث وبظهور المجتمعات الغربية المتطورة ظهرت طرق جديدة للقتال في الحروب تستخدم الوسائل والتكنلوجيا الحديثة كمنهج جديد، حيث برزت وظهرت مصطلحات جديدة في الخطابات الحداثية تركز على حقوق الانسان، والحريات الشخصية والجماعية، والمساواة والتضامن. وتمثل تلك الخطابات الحداثية طريقة جديدة للهيمنة لأنها تجسد في ظاهرها العلمانية، العلموية، الوضعية، العقلانية، ولكن في باطنها تغطى عقيدة الحداثة التي تحتوي العنف[7] والاستعمار والقتل.

من ناحية أخرى نجد ان مفاهيم الوعي القومي والمواطنة التي تبلورت بعد الثورة الفرنسية، لم تكن وليدة تلك الثورة فقط بل كانت لها جذور تمتد للوعي اليوناني والروماني والمسيحي القديم في القرون الوسطي.[8] فالدولة الحديثة قامت بتنفيذ التقاليد المتوارثة من ثقافتهم القديمة ولكن بخطاب جديد. مثل بناء قوس النصر في فرنسا من قبل نابليون في بداية القرن التاسع عشر لتكون رمزا يخلد انتصارات الجيوش الإمبراطورية. وقد تم أيضا بناؤها في كل المجتمعات التي وقعت تحت سلطة الاستعمار الفرنسي كرمز لفخرهم وترهيب للشعوب المستعمرة.

وهنا تحضرنا أبشع صور القتل التي مارستها فرنسا ضد الشعب الجزائري وشلال الدماء ومسلسل الجرائم منذ سنة 1830 وإلى غاية 1962. فقد تبنت فرنسا حرب الإبادة ضد الشعب الجزائري بأكمله رجالا شيوخا نساء واطفالا. وعملت على استئصال العنصر البشري، فقامت بحرق المداشر بأكملها وباهلها وحيواناتها. وقامت بصلب الرجال وقطع رؤوسهم والتمثيل والتنكيل بجثتهم وشق بطون الأمهات الحوامل، وتشريد العوائل. لقد اكتست الحرب التي شنها الجنرال بيجو ضد الشعب الجزائري بالطابع الاجرامي والعنف حتى تناقص عدد سكان الجزائر في ظرف سبع سنوات من 10 ملايين الى 3 ملايين نسمة. [9]

وقد صرح وزير الحرب الفرنسي جرار قائلا: " لا بد من إبادة جميع السكان العرب، إن المجازر والحرائق وتخريب الفلاحة هي في تقديري الوسائل الوحيدة لتركيز هيمنتنا." ويقول الجنرال بوجو امام البرلمان الفرنسي: " أينما وجدت المياه الصالحة والرض الخصبة، يجب إقامة المعمرين بدون استفسار من أصحاب الراضي..." [10]

والشواهد كثيرة على بشاعة ما ارتكبته فرنسا في حق الشعب الجزائري من قتل وتعذيب وتمثيل ولا زالت الآثار باقية خاصة القنابل النووية التي فجرتها في صحراء الجزائر، وعانى منها ولا زال يعاني منها الشعب الجزائري. دون ان ننسى ان فرنسا لا زالت تحتفظ بذكريات جرائمها فهي تحتفظ برؤوس المجاهدين المنكل بهم في متحف الانسان بباريس وهو خير دليل على بشاعة ما اقترفته من مجازر ضد الشعب الجزائري. الأمثلة كثيرة عن بشاعة المستعمر الغربي، ومنها ما حدث في سجن أبو غريب ومن انتهاكات لحقوق الانسان والأسرى هناك.

لقد كانت الدول الغربية المسيطرة تعتمد في هيمنتها على الخطاب السياسي بالدرجة الأولى على رمزية تلك الأقواس والهياكل والتماثيل. وقد كانت تتداول إعلاميا اخبار غزواتها للشعوب الإسلامية من خلال عرض تفاصيل تلك الأحداث كرسوم على اقواس النصر، ومن هنا كانت تحاول إقامة شرعية لغزو الشعوب المستضعفة وقتلهم والتنكيل بجثتهم. والواقع الذي نعيشه الان يصور لنا نفس المعادلة، فمثلا عندما تقوم إسرائيل باستهداف دولة فلسطين تصور ذلك إعلاميا وتنشره كرمز لقوتها وهيمنتها على المنطقة وكنوع آخر من اقواس النصر المعاصرة.

لكن السؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح الان؛ أين هي القيم التي تنادي بها المجتمعات الغربية؟ أين هي الديمقراطية؟ أين هي حقوق الانسان؟ أين هي الفضائل والشمائل؟

الواقع يقول ان كل هذه المصطلحات هي مجسدة من قبل المجتمعات الغربية داخل المجتمعات التي استعمرتها ولكن بتناقض شديد؟

هذه المفارقة بين الخطاب والواقع يقودنا الى البحث في إمكانية تحقيق هذه المصطلحات على ارض الواقع؟ سيخبرنا التاريخ اذن عن وجودها بسنوات عديدة في المجتمعات الإسلامية قبل المجتمعات الغربية. وبانها لم تكن مثالية فقط بل واقعية أيضا.

2) الحرب والتمثيل بالقتلى عند المسلمين

إن الحرب في الإسلام ليست هي الأصل الذي ينظم العلاقات. بل أصل العلاقات الإنسانية والدولية هو السلم. وتكون الحرب ضرورة عندما يكون الاعتداء على الدولة الإسلامية وذلك بمقتضى الدفاع عن النفس والعقيدة والحرية الدينية، فالحرب اذن لم تشرع إلا لغايات سامية إما دفاعا عن النفس والوطن، او لرد الظلم والعدوان وحماية العقيدة من الفتنة الدينية. [11]

وثقافة الحرب في الإسلام يجب ان تؤخذ من اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ومن اقوال الأئمة الأجلاء رضوان الله عليهم، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه ويوجههم في مسألة الحرب فيقول: " لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ" [12]

لقد عرفت الأمة الإسلامية تجربة جهادية حربية عالمية كان هدفها بسط رسالة الإسلام على مساحات شاسعة وفي وقت قياسي. لكن الشيء المميز جدا في الحرب الإسلامية في الفترة النبوية انه اريق في جميع الغزوات والسرايا التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم اقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات، حيث لم يتجاوز عدد القتلى في الفرقين 1018 قتيلا في 18 غارة، و27 غزوة استغرقت كلها 435 يوما. ومجموع عدد السرايا بلغ 77 سرية استغرقت 350 يوما قادها الرسول صلى الله عليه وسلم. لقد كانت الحرب الإسلامية حاقنة للدماء، وموفرة للوقت والجهد في تغيير الأنظمة الفاسدة، فكان التوسع الإسلامي بنسبة 274 ميلا مربعا في العام، وبلغت نسبة الخسائر في الأرواح نسبة شخص واحد في الشهر، وبلغت اقصى خسائر الأعداء في النفوس 150 شخصا في المعركة. وفي ظرف 10 سنوات خضع أكثر من مليون ميل مربع للحكم الإسلامي. [13]

ويعود السبب الحقيقي في تميز الحرب الإسلامية كونها كانت خاضعة لآداب واخلاق الحرب المبنية على الإنسانية والتي لم تعرفها المجتمعات الغربية إلا بعد قرون من ذلك.

من هنا يتضح لنا ان الحروب الإسلامية حروب هادفة، من اجل رفع الظلم وبسط العدل ونشر كلمة الله بالسماحة والرحمة والرأفة. ولم تكن عبثية من اجل سفك الدماء وفرض السيطرة والهيمنة واشباع الرغبات.

وقد طبق المسلمون في الفتوحات تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم، فلم يقتلوا كل المشركين بل قاتلوا من قاتلهم، واحترموا النساء والأطفال والعزل وغيرها من آداب الحرب الإسلامية. حيث ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال: ((اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثّلوا..)). [14]

وتمثلت آداب الحرب الإسلامية في أعلى درجات المسامحة وهي كالتالي: [15]

-عرض اهداف الحرب على الخصم

-عدم قتال المسلمين

-عدم قتل الأبرياء والآمنين العزل

-عدم قتل النساء والأطفال خصوصا

-عدم اتلاف الممتلكات

-الانفاق على الأسير قال تعالى: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا[16]

- عدم الافساد في الأرض

- عدم الغدر، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يودع السرايا موصيا إياهم: "وَلاَ تَغْدِرُوا" [17]

-ألا يقتل إلا المقاتل

رغم سماحة الإسلام وعدله ورحمته في مسألة الحرب إلا اننا نلاحظ في الحروب المعاصرة وباسم الإسلام جماعات تدعي الجهاد باسم الإسلام ولكنها لا تتبع آداب الحروب الإسلامية. حيث نجدها تغالي في التمثيل بالجثث بعد قتلها بأبشع الطرق، واللعب برؤوس القتلى وتشويه الجثث بالرصاص، وقتل الأبرياء والعزل والأطفال والشيوخ وسبي النساء وبيعهن واغتصابهن ثم ذبحهن. وخير مثال على ذلك ما عاشته الجزائر في العشرية السوداء، وما تعيشه الدول الإسلامية بعد الربيع العربي، خاصة بعد ظهور جماعاتمثل تنظيم الدولة في العراق وسوريا تدعوا للجهاد باسم الإسلام.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "وإنَّكم ستجِدون أقوامًا قد حبسوا أنفُسَهم في هذه الصَّوامع، فاتْركوهم وما حَبسوا له أنفُسَهم، ولا تقْتلوا كبيرًا هرمًا ولا امرأة، ولا وليدًا، ولا تخربوا عمرانًا، ولا تقْطعوا شجرة إلاَّ لنفع، ولا تَعقِرُنَّ بهيمة إلاَّ لنفع، ولا تَحرِقُنَّ نخلاً ولا تُغرِقُنَّه، ولا تغدرْ، ولا تمثِّل، ولا تجبنْ، ولا تغلُل". [18]

هذه السلوكات غير الإسلامية التي تمارس في الحروب باسم الإسلام إنما هي ممارسات الجاهلية، وجذورها تعود الى السياسة الغربية في الحروب والتي ذكرناها سابقا. والمبنية أساسا على فكرة السيطرة على الشعوب المستضعفة من اجل الاستغلال والنهب والتقتيل بأبشع الصور وفرض الهيمنة الغربية المركزية.

خاتمة

ان التمثيل والتنكيل بقتلى الحرب يعتبر خير دليل على نظرة الغالب لحقوق الانسان. فالغالب هنا يفتخر بالتعذيب والقتل والتمثيل بالجثث ويزداد افتخاره من خلال تثبيت ذلك العمل الشنيع وتوثيقه بالصور ومن ثم نشره عبر وسائل الاعلام، وقنوات التواصل الاجتماعيالدجتالي. وهم بهذا الفعل يعطون شرعية لطقوسهم التي ترمز للهيمنة عن طريق نشر ثقافة القتل والتمثيل بالجثث.

رغم اعتماد الحضارة الغربية على مصطلحات ونظريات تدعم حقوق الانسان إلا انها لا زالت متمسكة ومتشبثة بالممارسات القديمة إزاء قتلى الحرب؛ تلك الممارسات التي كان يطبقها الصليبيون والرومانيون في القرون الوسطى. بل قامت الحضارة الغربيةبإنشاء طرقحديثة للتعذيب والتمثيل بأموات العدو. وهكذا أخد العنف شكلا جديدا يعكس مفهوم اقواس النصر التي كانت متداولة من قبل.

اما الجماعات الإسلامية التي تدعوا الى الجهاد باسم الدين فهم لا يطبقون آداب الحرب الإسلامية كما دعا اليها الرسول عليه الصلاة والسلام. بل أصبحوا يقاتلون ويغزون كما كان يفعل الصليبيون وجيوش الغرب من قبل. من هنا يجب علينا ان نفتح بابا للتساؤل؛ لماذاتطبق الجماعاتالإسلامية السّبل التي كان يطبقها الغرب في غزواته على المجتمعات المستضعفة، رغم وجود قوانين وآداب وأخلاق إسلامية خاصة بالحرب تميزت بها المجتمعات الإسلامية قبل الغربية؟

الهوامش:

1-سورة الأعراف، الآية 124

2-سورة الأنبياء، الآية 68

3-سورة النساء، الآية 157

4-http://www.sacred-texts.com/bib/wb/trk/mat.htm, 2016,05,02, Matthew, 27:1-66

5-http://st-takla.org/pub_newtest/Arabic-New-Testament-Books/01-Matthew/Engeel-Matta_Chapter-27.html إنجيل المتي 27/37

6- المصدر نفسه، 27/39-43

7-Eliade Mircea, KutsalveDindışı, Çeviren Mehmet Ali Kılıçbay, GeceYay, Ankara 1991 sh. 180

8-Hayes Carlton J., Nationalizm: A Religion, New York, 1960,

9-سعدي بن زيان، جرائم فرنسا، مقال استخرج بتاريخ 2016/04/10 من الرابطhttp://ouadie.ahlamontada.com

10-المرجع نفسه.

11-نادية حسني صقر، فلسفة الحرب في الإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 1990، ص107

12-البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى: كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس (2804) واللفظ له، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء(1742)

13-محفوظ ولد خيري، أخلاق الحرب في الإسلام، مقال استخرج بتاريخ 05/06/2014 من الرابط http://articles.islamweb.net

14-هج البلاغة: 445

15-محمد أبو زهرة، نظرية الحرب في الإسلام، سلسلة دراسات إسلامية، القاهرة، 2008, ص 59

16-سورة الانسان، الآية 8

17-مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمير الأمراء على البعوث (1731)، وأبو داود (2613)، والترمذي (1408)، وابن ماجه.(2857)

18-سنن البيهقي.